حول الالتزام ...

البير كامو والقضية الجزائرية

بقلم جورج جوايو
ترجمة الدكتور ابو القاسم سعد الله

ان الشاب (*) الذي غادر الجزائر في اواخر الثلاثينيات الى أوروبا « الحزينة » ، « المظلمة » ، « الجافة » ، المروعة ، قد احضر معه بعض الابعاد الاساسية الكفيلة بأن يستمد منها اي كاتب رسالته ووسائل تعبيره . وهكذا فانه ، لكي نفهم حقيقة فلسفة كامو (بالمعنى العام للكلمة ، لان كامو ، بعكس سارتر ، ليس اساسا فيلسوفا) ، لا نستطيع ان نتجاهل دور الجزائر ، مسقط راسه ، ومشاركته النشيطة، خلال شبابه ، في حياة هذه البلاد ذات « الصيف الدائم » .

فكتابات كامو الاولى ، سواء مقالاته التي جمعها في كتابه « طرفا القضية » سنة ١٩٣٧ و « الزواج » سنة ١٩٣٩ ، او مساهمته الصحفية (كمقالاته عن احوال اهل الجزائر) ، تعتبر مفاتيح ضرورية لفهم اعماله الاخيرة . وبالاضافة الى ذلك ، فان كتاباته الاولى تحمل الجواب لاولئك الذين لاموا كامو اخيرا على فشله في اتخاذ موقف واضح من المناقشات الحادة التي ظهرت نتيجة للقضية الجزائرية . لذلك فاننا سنحاول في الصفحات التالية أن نناقش دين كامو للجزائر وان نضيء بعض الجوانب من هذا الصمت المريب بخصوص المأساة التي تمزق الان ارض ميلاده .

ولاول وهلة نجد « أنه من المؤكد أن حضور الجزائر في أعمال كامو يظهر قبل كل شيء في العقيدة الصارخة الملحمية التي يعطيها البحر الابيض المتوسط الى الشمس والضوء » (١) فأثر الجزائر يظهر بوضوح في الاغلبية العظمى من أعمال كامو الادبية ، رغم أنه يبدو أكثر وضوحا في أشعاره المنثورة مثل « الزواج » و « الصيف » . بل حتى غياب هذا الاثر من بعض اعماله ، كما في كتابه « السقوط » ، قد استعمله كامو بقصد وجلالة لكي يركز على جو الشمال (اوروبا) الجحيمي . ذلك ان الجزائر هي التي جعلت كامو يطور « أسلوبه المشحون بالمعاني »(٢) تطويرا حقيقيا يلائم علاقة تفكيره في « الزواج » وفي العالم الخارجي. « ان في لغة « الزواج » حيوية غير عادية تبرز من نوعية التعبير المباشر في الصور المستعملة ومن تشنج الطلقات الشعورية التي تحملها هذه الصور . فالبحر في « درعه الفضي » ، والريف « أسود مضيء » ، وعالم تيبازه (**) «الاصفر والازرق» ، وعنف حمام «الشمس والريح» في جميلة » (٣) .

والواقع ان كامو قد اعترف بكرم الجزائر حين جعلها المسرح الخارجي والعاطفي لمعظم أعماله : « فالى جانب كتابيه « طرفا القضية » و « الزواج » ، فان « الغريب » الذي كان مسودته الاولى لمسرحيته « كاليغولا » ، و « أسطورة سيزيف » ـ كانت كلها قد خطت ، بل ان بعضها قد كتب ، قبل ١٩٣٩ . وبالاضافة الى ذلك ، فان كامو قد خصص كثيرا من الصفحات القيمة للجزائر في كتابه « الصيف » الذي كتبه خلال فترة طويلة ثم نشره عام ١٩٥٤ . وهكذا ، فان الجزائر لم تكن مسرح أحداث « الغريب » و « الطاعون » فقط ، ولكنها قد لعبت دورا هاما في كل أعمال كامو مانحة تلك الصور والرموز الاساسية التي تعطي للكاتب شخصيته وأسلوبه الواضح الخاص » (٤) .

ولكن الجزائر قد أعطت كامو اكثر من أسلوب ومسرح أحداث . ذلك ان كامو (كما يشير عنوان كتابه الاول « طرفا القضية ») يعترف بأن قضاء طفولته ومراهقته في الجزائر قد ترك اثرا عميقا على بعض آرائه في الانسان والحياة والعالم . فرد فعل كامو العاطفي للعالم الخارجي وللحياة قد أعطاه ، منذ البداية ، الاتجاه العقلي الذي حاول فيما بعد أن يبرره على أساس فلسفي . وقد سبق أن أشرنا الى ان العاطفة كانت دائما تسبق العقل عند كامو ، كما أكد ذلك الاستاذان بري وكرويكشان بمهارة في دراستهما الاخيرة عنه .

والجزائر التي يصفها كامو بأنها « بلاد بلا دروس » قد علمته شيئين : « شقاء الانسان ، وكل أضواء العالم » (٥) . وقد عارض كامو « الزواج » ، أنشودة الطبيعة ، بمقالاته « طرفا القضية » حيث يقول : « ان الفقر ، والشيخوخة ، ورحلة شاب وحيدا بلا نقود ، والصمت ، وسهاد ليلة بجانب أم عزيزة بلا حياة ـ كلها تجرد الانسان من الخيال ، والتسلي ، واللهو ، وتجعله يقف وجها لوجه أمام لغز حياته وموته معا » (٦) .

لقد قادت الجزائر كامو الى التمتع عاجلا بالحياة . كما قادته الى نوع من الشهوانية أو الجوع الى اللذة الايبكريسية التي عبر عنها بمهارة في مقالاته الاربع التي ضمنها كتابه « الزواج » حيث قال : « اني أحب هذه الحياة ... وأحب أن أتحدث عنها بحرية . ان الحياة تعطيني الفخر بقيمتي الانسانية . ومع ذلك فكثيرا ما قيل لي بأن « ليس هناك ما يستحق أن تفخر به ! » . حقا انني أعتقد ان هناك كثيرا من الاسباب التي تجعلني أفخر بالحياة : الشمس ، والبحر ، وقلبي الطافح بالشباب ، وجسمي القوي الملحمي ، ثم هذا المنظر الهائل حيث النعومة والمجد يختلطان باللونين الاصفر والازرق . ومهمتي ازاء ذلك هي استخدام كل من قوتي وحيويتي لاغتصابه جميعا » (٧) .

فالذي يهم كامو الجزائري هو ان يعيش الحياة نفسها لا أن يخترع معنى لها . ذلك اننا اذا حاولنا ان نخترع معنى للحياة فقد نتركها تفلت من أيدينا . وهكذا نجد انفسنا غير قادرين على امتلاك حياتنا كلها . فمقالة كامو « صيف في عاصمة الجزائر » التي هي احدى مقالاته الاربع في « الزواج » ، يتخللها رعب الموت ـ ذلك الموت الذي

(*) نشر هذا البحث في مجلة « يال للدراسات الفرنسية » (عدد ربيع ١٩٦٠) ص ١٠ ـ ١٩ .

(١) ايمي ديبوي « الجزائر في اداب اللغة الفرنسية » (باريس : المطبوعات الجامعية ، ١٩٥٧) ص ١٢٨ .

(٢) روبير دي لوبي « البير كامو » (باريس : المكتبات الجامعية ، ١٩٥١) ص ١١١ .

(**) (تيبازه) و (جميلة) مدينتان اثريتان في الجزائر ترجعان الى عهد الرومان . (المترجم) .

(٣) جيرمين بري « كامو » (نيو برونشفيك : صحافة جامعة روتغيرس ، ١٩٥٩) ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٤) بري ، نفس المرجع ، ص ١٣ .

(٥) فيليب تودي « البير كامو » (نيويورك : شركة ماكميلان ، ١٩٥٧) ص ٩ ـ ١٠ .

(٦) بري ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٧) البير كامو « الزواج » (باريس : غاليمار ، ١٩٥٠) ص ٢٠ .

يضع حدا نهائيا للتمتع الكامل بالحياة . ولنقرأ ما كتبه كامو عن هذه الحياة في مناسبات مختلفة : « اذا رفضت بعناد أن أعتقد في كل ما بعد هذه الحياة ، فلاني غير مستعد ان اتنكر لشروتي الحاضرة ... واذا كان هناك ذنب لا يغفر ضد الحياة ، فانه لا يتمثل في يأسنا من وجودنا الارضي بل في تعلق امالنا بعالم اخر ، هاربين من عظمة لا نظير لها في وجودنا الممنوح لنا الان ... ان هذه البلاد (الجزائر) لا تعطي أي درس . انها لا تعد ولا تقترح أي شيء . أن كل ما تفعله هو انتمنح ما عندها . وهي اذ تمنح تفعل ذلك بسخاء كبير . انها جميعا موهوبة للعيون . وان أحدنا ليعرفها بمجرد البدء في التمتع بها ... انالانسان يجد هنا (عاصمة الجزائر) خلال فتوته حياة تتلاءم مع وسامته . وبعد ذلك يحل التدهور والهرم . ولكن الانسان يعرف ذلك . انه هنا يقامر بجسده ، ومع ذلك يعرف انه سيفقده » (٨) .

لقد كان كامو يقامر على الجسد ، ولكنه ، مثل أهل بلاده ، يعرف انه سيفقده . واذا كان غالبا ما استطاع ان يضبط هذه الشهوانية في أعماله ، فليس معنى ذلك انه قد اكتشف « لذات أخرى » او وجد تضامنا في حركة المقاومة الفرنسية التي انضم اليها ، ولكن معناه انه كان منذ البداية واعيا لوجود طرف اخر للقضية ، كما يشير كتابه . وهكذا ، فالقول بانه « قد يكون هناك خجل من السعادة الفردية » (٩) كما يردد رامبير في « الطاعون » ، ليس قولا غير متوقع من كامو . ان هذا الاعتقاد الذي كان واضحا لدى كامو من البداية يعكس خط القوة الاخر لديه . والواقع ان تاريخ أوروبا الحديث قد زاد من معرفة كامو بالفقر والشقاء واللاانسانية . وقد عبر هو نفسه عن ذلك حين قال : « هل تعرف بأن اكثر من سبعين مليون اوروبي ، رجالا ونساء واطفالا ، قد أرغموا على تغيير اقامتهم ، أو طردوا من بلادهم ، او قتلوا ، خلال فترة لا تتجاوز ربع قرن ، من ١٩٢٢ الى ١٩٤٧ » ؟ (١٠) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان كتابه « طرفا القضية » المطبوع سنة ١٩٣٧ (والذي لم يكن معروفا حتى اخيرا) يكشف عن وعي كامو للطرف الاخر من القضية ـ الطرف القاتم ، وذلك لمقابلته الواضحة لطرف « الشمس التي لا تنطفيء » في عالم كتابه « الزواج » . ان « طرفا القضية » يركز أساسا على طفولة كامو البائسة ومعرفته المبكرة بالموت على حقيقته . ففي مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذي طال انتظار اعادة طبعه ، يعترف كامو بدينه للجزائر مشيرا بالخصوص الى ان كتاباته الاولى في الجزائر كانت الاساس لجميع أعماله الاخرى . فهو يقول : « ان كل فنان يحتفظ في غور أعماقه بمنبع قد يسقي منه شخصيته وفنه خلال حياته كلها ... أما أنا فاني متيقن بأن منبعي هو « طرفا القضية » الذي يعبر عن عالم مليء بالفقر والضوء حيث عشت لفترة طويلة . ان ذكرى ذلك العالم ما زالت تحميني من خطرين متعارضين يهددان كل فنان وهما : الاستنكار والرضى » (١١) .

فلو ان لقاء كامو المبكر مع ظلام الفقر لم يتوازن مع شمس الجزائر التي لا تنطفيء ، لكان رد فعله مختلفا تماما ..وهو نفسه يشرح ذلك في قوله : « ان الفقر لم يكن أبدا بالنسبة لي سوء حظ . لقد كان دائما متوازنا مع الضوء الثري ... فالفقر قد منعني من الاعتقاد بأن كلشيء على ما يرام تحت الشمس وفي التاريخ . وقد علمتني الشمس بأن التاريخ ليس كل شيء » (١٢) .

وهكذا ، فمن خلال كلمات كامو نفسه نعي الكيفية التي تعلم بها من احدى مظالم العالم الكثيرة ، وهي هنا مظلمة الطقس . فكل « طرف من القضية » قد منع كامو من اختيار أحد الاتجاهين اللذين عرفهما في سنواته الاولى . وهو نفسه يقول عن ذلك : « أنه من المستحيل أن تتمتع بالحياة كاملة . انني أعرف ذلك رغم مواهبي العظيمة في هذا الميدان . وقد جاء الزمن ـ زمن اليأس الحقيقي ـ فحطم كل شيء في ما عدا رغبتي غير العادية في الحياة » (١٣) .

ومنذ ١٩٣٧ ختم كامو احدى مقالاته « طرفا القضية » بشكل أظهر فيه ولاءه الثنائي لهاتين الفكرتين المتنافضتين ، فقال : « انني أنتمي الى العالم من خلال تصرفاتي ، والى الانسان من خلال كلشفقتي واعترافي بالجميل . واني لا أرغب في اختيار أحد هذين المبدئين ، كما لا أريد أحدا أن يختار بينهما ... فاذا كنت الان استمع الى صوت السخرية يختبيء خلف كل شيء ، فانه سيرتفع ذات يوم ببطء موشوشا الي باغراء : « عش كما لو ... » (١٤) .

والبحث عن الاعتدال (المقدار ، الحد ، الدرجة) ، الذي ننتج بالضرورة عن هذين الموقفين المتناقضين ، قد أصبح عاملا ثالثا في صنع شخصية كامو العاطفية والفنية . وهنا نحب أن نشير الى ان نفس الاهتمام بالاعتدال يشكل قاعدة رأي كامو حول الازمة الجزائرية . ولعله يجدر بنا أن نقف عند ما كتبه غبراييل اوديزيو ، الذي يعتبر من الاوائل الذين درسوا روح افريقية الشمالية وعقلية البحر الابيض المتوسط ، حيث يعلق على اعتدال هذه الروح وعلى طابعها الانساني فيقول : « ان هذا الاتجاه نحو الانسانية يشكل ميل آه لمالمغربالعربي نحو الاعتدال . فهم يدركون روح المبالغة التي تعيش فيهم ... لذلك كان عليهم ان يقدروا الفكرة الانسانية حق قدرها . ذلك انه من الضروري ان تلك الروح المتميزة بالتطرفات والتحولات ، ذاهبة من العقل الى الغريزة ، من اللافانونية الى الورع ، من الطفرة الى الجفاف ـ تعرف مراحلها الانسانية ، أي مراحلها حين كانت اتجاهاتها متوازية » (١٥) .

ونحن نجد في الرثاء الحار الذي قاله سارتر عن كامو ونشره في أعداد جريدة « فرانس اوبزيرفاتور » تلخيصا للنقد الذي وجه الى كامو بخصوص قضية الالتزام . فقد قال سارتر هناك : « انه من المهم لنا ولكامو ، لاولئك المسؤولين عن النظام والذين يعارضون هذا النظام ، أن يخرج كامو من صمته ، وان يصل الى قرار ، والى نتيجة ... فنحن الحائرين ، السائرين بلا دليل ، نؤمن ضرورة بأن على أحسن رجالنا ان يصلوا الى نهاية النفق » (١٦) .

حقا ان الكثيرين قد اصطدموا بصمت كامو ازاء القضية الجزائرية وبفشله في ان يلعب دور « مدير الضمير » الذي اعتادت فرنسا أن تسنده الى مفكريها : « ان الفرنسيين يتلفتون الى كتابهم في وقت الازمات القومية ، لان الكاتب في نظرهم هو الانسان الذي ينظر الى عالم قلبه ، ولكنه في نفس الوقت ينظر الى العالم نفسه ايضا ويحاول أن يدمج في كتاباته بعض الاعتبارات الخاصة بشؤون العالم كوحدة » (١٧) .

طبعا ان صمت كامو لا يتناسب ابدا مع عمق شفقته على الانسان ولا مع حبه اللامحدود للارض التي ولد فيها . فهو نفسه يقول : « ان لي مع الجزائر أسرار حب لن تنتهي أبدا » (١٨) . ولكن من الطبيعي ايضا

(٨) كامو ، نفس المصدر ، ص ٣٤ ، ٦٣ ، ٦٤ .
(٩) كامو ، « الطاعون » (باريس : غاللييمار ، ١٩٤٧) ص ١٧١ .
(١٠) نقلله بري ، المرجع السابق ، ص ٣ .
(١١) كامو « طرفا القضية » (باريس : غاللييمار، ١٩٥٨) ص ١٣ .
(١٢) نفس المصدر .
(١٣) نفس المصدر ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .
(١٤) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .
(١٥) غبراييل اوديزيو « عبقرية افريقية الشمالية من القديس اوغسطين الى ألبير كامو » في مجلة « تقاويم المركز الجامعي للبحر الابيض المتوسط » (نيس : منشورات أصدقاء جمعية س.ي.م. ، ١٩٥٤) ص ١٦٠ .
(١٦) جان بول سارتر « البير كامو » جريدة « فرانس اوبزيرفاتور » (٦ يناير ، ١٩٦٠) ص ١٦ . ترجمة مجلة « ذي روبورتور » (٤ فبراير ١٩٦٠) ص ٣٤ .
(١٧) واللاس فاولي « دليل الىالادب الفرنسي المعاصر) (نيويورك: ميريديان بوكس ، ١٩٥٧) ص ١٤ .
(١٨) نقل بري ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

أن نعترف بأنه من الصعوبة المؤلمة ان يكون على الانسان الشريف ان يختار موقفا محددا بين العالمين اللذين ينتمي اليهما معا في نفس الوقت . اننا نجد صعوبة مشابهة تواجه محمد ديب ، كاتب ياسين ، ادريس الشرايبي ، البير ميمي ، وغيرهم من كتاب افريقية الشمالية ذوي الولاء الثنائي الذي نتج من انتمائهم الى عالمين مختلفين : عالم شبابهم وتقاليدهم ، والعالم الغربي الذي ساعدهم على اكتشاف قيمة أنفسهم . ان هؤلاء يجدون انفسهم امام صعوبة كبيرة ايضا لكي يتخذوا موقفا محددا . ومع ذلك ، ورغم رفضهم ان يقطعوا علاقاتهم مع أحد العالمين ، فان كتاباتهم تشهد بانهم يعطفون على أهل افريقية الشمالية البائسين .

ولكن القارىء المتمرس على كتابات كامو ، ولا سيما كتاباته الصحفية (التي جمعت ونشرت في ثلاثة مجلدات بعنوان «وقائع») يستطيع أن يلاحظ ، بلا عناء ، رأي كامو عن حرب الجزائر ، وعن موقفه العام تجاه أي اعتداء يرتكبه الانسان . ولكي نفهم لماذا رفض كامو ان ينضم الى سارتر ومالرو وغيرهما من الذين استنكروا السلوك الفرنسي في الجزائر ، او على الاقل لماذا رفض ان يعطي لهذا السلوك معنى خاصا ، يجب علينا ان نعود الى الماضي ونتتبع خطوات كامو من شواطىء الجزائر الشمسية الى ظلمات « أوروبا التي غالبا ما كانت قذرة بالحروب والاعدام الجماعي » (١٩) .

والحق ان كامو قد اوضح موقفه من الحضور الفرنسي في الجزائر منذ عام ١٩٣٩ حين كان محررا بجريدة الحزب الشيوعي الجزائري « الجي ريبيبليكان » . فمقالاته عن حالة سكان القبائل لم تترك مجالا للشك بخصوص احساسه نحو شقاء أهل البلاد وفشل فرنسا في اداء دورها . فقد كتب كامو عندئذ ما يلي : « اننا نجد العشر فقط من الاطفال ذوي السن المدرسية يستطيعون أن يتمتعوا بفرص التعليم ... بل انني اشعر بأن المدارس القليلة الجميلة الواسعة في هذه الناحية كانت قد بنيت خاصة للسياح ولجان المراقبة . وهكذا ، نجد ان القائمين على هذه المدارس يضحون بالحاجات الاساسية للاهلين من أجل السمعة ... ان التعليم يجب أن يمر بتعديل اساسي ... فالقبائل سوف تجد مدارس اكثر حين يتنحى هذا الحاجز الاصطناعي الذي يفصل بين مدارس الاوروبيين والاهليين ، وبكلمة اخرى حين يتعلم الشعبان ان يفهم احدهما الاخر ويبدآن في التعرف على بعضهما جنبا الى جنب على مقاعد مدارس موحدة ... اذا كنا حقا جادين في سياسة الاندماج (في الجزائر) ، واذا كنا حقا نريد ان نجعل من أهل هذه البلاد ، الجديرين بالاعتبار ، فرنسيين ، فان علينا أن لا نبدأ بتفريقهم عن الفرنسيين ... اذا كان الاستعمار قادرا ذات يوم ان يبرر نفسه ، فان مبرره سيكون في مدى مساعدته للشعب المحتل ان يحتفظ بشخصيته . واذا كان لنا واجب نؤديه في هذه البلاد ، فانه يتمثل في سماحنا لشعب من اكثر شعوب العالم فخرا وانسانية أن يبقى أمينا لنفسه ولقدره » (٢٠) .

فهذه النصوص تبدو كافية في توضيح موقف كامو نحو الجزائر قبل الثورة بمدة طويلة . فيجب ، اذن ، ان لا نستغرب حين نعرف ان كامو قد اصبح شخصا غير مرغوب فيه بعد نشر هذه النصوص . ولذلك كان عليه ان ينتقل أولا من الجزائر العاصمة الى وهران ثم الى باريس .

وخلال السنوات التالية ألقى كامو نفسه في خضم المعركة ضد الاحتلال الالماني لفرنسا . ففي هذه الفترة كتب كامو افتتاحيات كثيرة هامة ساهم بها في جريدة (كومبا) . كما كتب بروح انسانية عميقة مؤثرة « رسائل الى صديق ألماني » . وقد جاء في احدى هذه الرسائل : « ما زلت أعتقد بانه لا وجود لمعنى سام في هذا العالم ، ولكني أعلم ان هناك شيئا له معنى وهو الانسان . ذلك أن الكائن الوحيد الذي يطالب بأن يكون له معنى . فهذا العالم يحتوي على الاقل على حقيقة الانسان ، وان واجبنا هو أن نعطي لهذا الانسان الوسائل ضد القدر نفسه . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا العالم ليس له سبب ان يوجد لولا الانسان . لذلك علينا أن ننقذ هذا الانسان اذا كنا نود ان نحتفظ بفكرة الحياة عندنا . ان ابتسامك وامتعاضك قد يسألانني : « ماذا تعني بانقاذ الانسان ؟ » ان ذلك هو ما كنت أصرخ لك به من أعماق قلبي ، انه ليس في التمثيل به ولكن في اعطائه فرصة للعدالة التي هي الشيء الوحيد الذي يرتئيه » (٢١) .

واثر تحرير فرنسا عاد كامو الى المشكل الجزائري مرة اخرى فكتب عنه سلسلة من الافتتاحيات مناديا بتغييرات جذرية في السياسة الفرنسية . فهو يقول : « هل من المعقول أن يعاني الملايين من الجوع في هذه البلاد (الجزائر) التي توحي فيها الارض والسماء بالسعادة ؟.. انني أقرأ في صحيفة يومية أن ثمانين في المائة من عرب الجزائر يودون أن يصبحوا مواطنين فرنسيين ... غير انني حين أنظر الى الاوضاع الحاضرة فاني أقول انه بالرغم من رغبتهم فان الجزائريين لم يعودوا مهتمين بقضية المواطنة الان ... ان السياسة الفرنسية في الجزائر دائما تسير عشرين سنة متأخرة » (٢٢) .

ولكن سنوات ما بعد الحرب الثانية قد برهنت على خيبة الامل التي عانى منها كامو وغيره من الذين اعتقدوا ان حركة المقاومة الفرنسية ضد المانيا تعني فجرا جديدا : « ان ذلك الامل قد خاب بمرارة ... والشعور بهذه الصدمة قد لازم الاعضاء السابقين في المقاومة ، كما لازم المنادين بالاصلاح الاجتماعي والسياسي ، بل لازم المثقفين عامة » (٢٣)

ولعل عمق هذه الصدمة عند كامو في فشل فرنسا ـ حكومة وشعبا ـ في اداء دورها يفوق عمق صدمة كل المثقفين الاخرين. فالاجزاء الثلاثة من « الوقائع » التي تضم أفكارا مختلفة « تنتقل من الامل والتأكد الى نوع من الهم والحزن ... هي السجل الذي نلاحظ منه التطور النموذجي لكثير من اصحاب كامو الذين يمثلون « اليسار الليبرالي » ، ولكنهم قد اصطدموا بتخبط السياسة الفرنسية » (٢٤) . وكلما انتشر « السرطان » الجزائري وارتفعت حدة الازمة ، واجه كامو صعوبة الاختيار ، رغم انه بلا شك لم يسمح بالنطرف بأية حال ، بقطع النظر عن الجهة التي جاء منها . فهو نفسه يقول : « ما دمت غير قادر على الانضمام الى أي من الجهتين المتطرفتين ... فقد قررت أن لا أشارك بعد الان في هذه المهاترات التي لا نهاية لها والتي ليس لها نتيجة سوى تأزم الاوضاع في الجزائر وزيادة تقسيم فرنسا التي قد تسممت منذ مدة بالاحقاد والطوائف » (٢٥) .

ان أقصوصة كامو « الضيف » المنشورة ضمن كتابه « المنفى والمملكة » (١٩٥٧) ، محاولة مقصودة منه « لكي يعبر بها عن مصاعبه الشخصية التي جربها بنفسه في الحكم على الحالة في الجزائر » (٢٦) وهنا يجب أن نشير الى ان دارو ، المدرس المولود بالجزائر الذي كان قد كلف بتسليم سجين عربي الى السلطات الفرنسية ، قد ترك القرار للسجين نفسه ، ولكنه قد اكتشف ان السجين قد اختار أن يمشي الى السجن . وأهم من ذلك ان هذه القصة تفسر الحاجة الى التفاهم بين الجانبين ، كما تفسر بالخصوص فشل الاتصالات بين أمثال دارو من الفرنسيين والجزائريين .

(١٩) بري ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢٠) كامو « الوقائع » ج ٣ (باريس : غاليمار ، ١٩٥٨) ، ص ٥١ ، ٦٣ ـ ٦٤ ، ٦٤ ، ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢١) كامو « رسائل الى صديق الماني » (باريس : غاليمار ١٩٤٨) ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢٢) كامو « الوقائع » ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ١٠٩ .

(٢٣) هنري بير « الرواية الفرنسية المعاصرة » (نيويورك : صحافة اكسفورد الجامعية ، ١٩٥٥) ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢٤) بري ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢٥) كامو « الوقائع » ج ٣ ، ص ١٢ .

(٢٦) تودي ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

وقد تفطن فيليب تودي الى هذا فأشار في دراسته الاخيرة عن كامو الى مقال « خواطر عن المشنقة » الذي نشره كامو في مجلة « نوفيل ريفو فرانسيز » ، يوليو ، ١٩٥٧ ، قائلا بأن هذا المقال يحتوي على رأي كامو غير المباشر حول المشكل الجزائري وعلى موقفه منه . فاعتراض كامو على العقاب بالموت موضوع شائع في كتاباته ـ كما هو موضوع شائع في الادب اليوم . ومع ذلك فان هذه « الخواطر » تمثل اول محاولة لكامو لتقديم « حجة مناسبة ضد العقاب بالموت » ، ولذلك فان هذا المقال يستحق فحصا دقيقا . فدعوة كامو لمحو عقوبة الاعدام في هذه اللحظة من التاريخ الفرنسي حيث تدور الحرب في الجزائر ، مسخرا لتلك الدعوة كل قدراته الاخلاقية العالية ، يثير سؤالا هاما حول الادب الملتزم ... وهو هل على الكاتب أن ينذر نفسه لتناول موضوعات سياسية خاصة ... او عليه ان يشغل نفسه بموضوعات عامة كالتي ناقشها كامو في هذا المقال ؟ » (٢٧) .

ان كامو قد حاول دائما ، باستثناء مشاركته في المقاومة الفرنسية حين توافقت تماما الحركة مع الفكرة ، ان يتجنب الارتباط الكامل الذي قد يؤدي الى ضياع مروءته او يضر باستقلاله العقلي والاخلاقي أو يجبره على ان يوافق على الموت . وقد عبر كامو عن هذا الموقف على لسان تارو في « الطاعون » حين قال : « لقد قررت أن أرفض كل ما قد يسبب موت الناس او يبرر موتهم سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، وسواء كان ذلك لاسباب قوية او ضعيفة » (٢٨) . وقد أوضحنا من قبل بأن أحد خطوط القوة عند كامو هو بحثه الدائم عن « الاعتدال » ورفضه الارادي « لقيمة خطب الطغاة المتعصبين » مفضلا « قيمة الحوار » (٢٩) .

ونحن بلا شك نتفق مع سارتر ، ونأسف على ان كامو لم يستعمل قوته الاخلاقية العالية لكي يستنكر ، علانية وبلا تردد ، سوء التصرف الذي لا ينكره أحد والذي تقوم به بعض العناصر الفرنسية في الجزائر. ولكننا مع ذلك يجب أن نعترف بأن هذا الاستنكار موجود وواضح من أعماله ، بالرغم من انه ليس على طريقة سارتر المباشرة . ورغم ان كامو قد رفض ان « يترك أرض الاخلاق السليمة ويغامر على طرق غير واضحة باسم العملية » ، فانه لم يتهرب من مسؤوليته نحو القضية الجزائرية ، بل انه قد عبر عن رأيه نحوها في ايمانه المعاند بالانسان . ورغم ايماننا بأن حرب الجزائر تعتبر بلا شك مأساة فانها بالنسبة لكامو جزء فقط من « الطاعون » الضخم الذي يهاجم الانسان . انها المرض الذي يضع علامات الاستفهام بخصوص مستقبل الانسان نفسه . ان هذا هو ، كما كان ، أهم ما يشغل كامو ، فهو يقول : « ان كل جيل يعتقد ان عليه ان يصنع العالم من جديد . ولكن جيلي يعرف انه لن يفعل ذلك . ومع ذلك فعسى ان يكون دوره اكثر أهمية . آن دور جيلي يتمثل في منع العالم من القضاء على نفسه » (٣٠) .

وهكذا ، فتحت صمت كامو الذي فرضه على نفسه تجاه تصرف الفرنسيين في الجزائر ، يوجد الاستنكار الواضح التام للمعاملة اللاانسانية التي يرتكبها الانسان ضد الانسان . وكما أوضح سارتر فان « كل من قرأ او تدبر كامو يجد القيم الانسانية التي كان يحملها في قبضته » (٣١) .

ترجمة ابو القاسم سعد الله
استاذ في التاريخ

---

(٢٧) تودي ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .
(٢٨) كامو « الطاعون » ، ص ٢٠٨ .
(٢٩) بري ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .
(٣٠) كامو « محاضرات السويد » (باريس : غاليمار ، ١٩٥٨) ، ص ١٧ .
(٣١) سارتر ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها
في كل مكان

أولاد حارتنا

* أجرأ وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
* الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...
* تنشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة

الثمن ٧٥٠ ق. ل.